

البحر

كما ورد في المشروع
الذي قدمته البعثة الدبلوماسية من جورجيا
لملك فرنسا لويس الرابع عشر
في القرن الثامن عشر

تعود الصلات المتبادلة بين جورجيا والبلدان العربية إلى
قرون عديدة بداية من القرن الأول الهجري . ولقد ظلت
تفليس، عاصمة جورجيا، إمارة تحت حكم العرب لمدة
حوالي ٢٥٠ عاما .



وترك حكام تفليس العرب بصمات العلاقات الجورجية
العربية بشكل استيعاب المفردات العربية في نقوش جورجيا
ونقوش العرب على السواء . وتم الاحتفاظ بالمخطوطات
العربية، كما أن المصادر العربية كثيرة في جورجيا، ومنها
على سبيل المثال، كتابات كل من المسعودي والطبري وابن
الأثير وياقوت الحموي والقلقشندي . الخ .



بقلم :
البروفيسور
غورام
شيكوفاني

لويس الرابع عشر
ملك فرنسا ١٦٤٣م

ومن الجدير بالذكر أن كتاب "تاريخ الميفارقين" للأزرق الفارق الذي ولد في عام ١١١٦هـ/١٦١٦م في مدينة الميفارقين . وسافر كثيراً في سوريا وبلاد الرافدين وجاء إلى جورجيا في ١١٥٣هـ/١٦٥٣م ودخل في خدمة البلاط الملكي لدى ابن الملك العظيم ديفيد اغماشنييلي (الباني والمجدد) ديمتري الأول (١١٢٥ - ١١٥٥م) . وسافر الفارق في منطقة جورجيا مصاحباً ديمتري وكتب عن أحوال جورجيا . وفي عام ١١٥٨هـ/١١٥٨م قام ديمتري بدراسة ساحة قتال "ديديغوري" حيث دارت فيها حرب بين ديفيد اغماشنييلي ونجم الدين الغازي في عام ١١٢٢هـ/١١٢٢م

الوثيقة ١٤٩.

انهزم فيها نجم الدين الغازي . واحتفظ الفارق بالقوانين التي دونها ديفيد عن المسلمين والتي كانت سارية المفعول آنئذ . وضرب ديفيد سكة معدنية (عملة) باسمه وأسماء كل من الخليفة والسلطان . وكان الفارق شاهد عيان لدخول ديمتري إلى مسجد يوماً من أيام الجمعة وجلسه في كرسي عال أمام الخطيب . وعند مغادرته المسجد تبرع بمبلغ قدره ٢٠٠ دينار . وعامل العلماء والفقهاء المسلمين باحترام .

وحسبما ورد في تقرير للفارق كانت تفليس تحت حكم سلالة مسلمة لمدة قرنين من الزمن . وفيما بعد انتقل الحكم إلى عائلاتها الأرستوقراطية . وكان حكم المدينة ينتقل من شخص إلى آخر كل شهر وكان هذا من حق كل مواطن . وهذه معلومات هامة . وكان هذا النظام يشبه النظام الذي ساد المجتمعات في المدن الأوروبية في القرون الوسطى حيث كان يمارس مجلس المدينة مهام الحكم يتداول فيه أعضاؤه باستمرار بالنوبة . ونود أن نستعيد لأذهاننا بعض الآثار التي تركها العرب في القرون الأولى الهجرية . ونذكر على سبيل المثال معلماً حجرياً لتحديد المسافة تم اكتشافه في تفليس القديمة ، عليه نقوش عربية : "بسم الله الرحمن الرحيم — ثلاثة أميال من تفليس" . وحسب قول المؤرخين العرب كان العرب يحددون المسافة التي اجتازوها أثناء الحملات العسكرية وينقشون الأرقام على الأحجار . ولكن مثل هذه المعالم تلاشت ويوجد بعضها فقط في جورجيا أو فلسطين غير أن البحث عنها مهم إذا أردنا دراسة العلاقات الجورجية العربية . وتوجد مخطوطات كثيرة في مكتبات عديدة في قوقاز تحتاج

إلى تصنيفها وفهرستها والفحص فيها مما يعود بفائدة كبيرة ويسلط الضوء على الثقافة العربية بقدر ملحوظ . إن التاريخ الحالي لشعب قوقاز الشمالية تم تدوينه دون أن يؤخذ بعين الاعتبار التقاليد اللغوية والأدبية للإقليم . وكانت اللغة العربية، اللغة الوحيدة للكتابة في كل من الشيشان وداغستان عبر قرون عديدة .

وكتب الكتاب مثل "شامل" وزملاؤه بهذه اللغة . والإحصائيات التالية تثبت مكانة اللغة العربية المتينة في قوقاز الشمالية . وحسب رأي المستعرب الروسي (أ. جينكو) فقد طبع ١٥١,٠٥٠ كتاباً في قوقاز الشمالية بالعربية حول ٨٢ موضوعاً في فترة ٤ سنوات من أول سبتمبر عام ١٩١٠ إلى أول سبتمبر ١٩١٤ م .

وتوضح هذه الأرقام مدى انتشار الأدب العربي في قوقاز . ومما لاشك فيه أن تنظيم الأبحاث في المؤلفات العربية يستحق الاهتمام إذا استهدفنا دراسة وافية في العلاقات العربية القوقازية .

أريد أن أركز في هذا البحث على علاقات جورجيا مع البلدان الخليجية في القرن الثامن عشر . ولدينا بهذا الصدد مصدر هام وهو المعلومات عن أمير جورجي شهير "سلخان صبا أوربيليانى" وهو عالم باهر وصاحب موسوعة، نفذ مهمة دبلوماسية في فرنسا في عام ١٧١٤ م .

ومنح "سلخان صبا أوربيليانى" تصريحاً مرتين ليقابل ملك فرنسا لويس الرابع عشر . وقد جرى اللقاء الأول بينهما قبل ١٤ أبريل

١٧١٤م . وكان لهذا اللقاء بين سلخان صبا والملك لويس ووزرائه كبير الأثر على الملك . وقد أعجب الملك ووزراؤه بشخصية سلخان صبا كما يظهر جلياً من محضر اللقائين والوثائق الأخرى المتعلقة بهما .

اجتمع "سلخان صبا أوربيليانى" بالملك لويس الذي كان آنئذ يتماثل للشفاء ويمر بفترة النقاهة وكان مزاجه متوتراً . ولما قدم "سلخان صبا أوربيليانى" تهانيه لملك فرنسا على شفائه رد الملك قائلاً بأنه على الرغم من تغلبه على أحد الأعداء إلا أنه تعرض لغزو من عدو آخر نتيجة لضعف الشيخوخة . وأضاف قائلاً بأن الحياة تصبح صعبة بعد الستين من العمر . وكان عمره آنئذ ٧٥ سنة . وذكر رقم ستين كمؤشر لضعف الشيخوخة .

فرد عليه "سلخان صبا أوربيليانى" : "إن مظهر جلالتكم الرائع لا يبدي الضعف وبالعكس يتمنى كل واحد أن يبدو بهذه الروعة في مظهره ! " .

وبعث هذا الرد من سلخان بموجة من البهجة لدى الملك الذي جعل هذا اللقاء بينه والأمير الجورجى حماسياً وحاراً .

وجاءت زيارة "سلخان صبا أوربيليانى" لفرنسا في ضوء الأوضاع السائدة في قوقاز في القرن الثامن عشر . وكانت جورجيا آنئذ تعاني من نير مزدوج لكل من إيران وتركيا . وجاهدت جورجيا بشدة لتجد حليفاً لها في تصديها للعدوان الإيراني ووجدت أن فرنسا قد تؤيدها إذ كان لها نفوذ لا يستهان به في الشرق . والتفاهم مع فرنسا قد يعطي لها

القدرة على كبح جماح الإمبراطورية العثمانية التوسعية . ومن منظورها واجهت جورجيا الخطر العثماني لأقصى درجة فاقترحت لفرنسا مشروعاً للتحالف معها، ومفاده أن تكون جورجيا حليف فرنسا عسكرياً وسياسياً في قوقاز لوضع حد لامتداد نفوذ إيران في قوقاز وأن تتبّع جورجيا سياسة تناسب مصالح فرنسا .

وأكدت جورجيا أن تحقيق مشروع لجورجيا وفرنسا سيمهد الطريق لإقامة علاقات مع المشيخات العربية في الخليج . ونظراً لأن المصالح الإيرانية أيضاً تركّزت على الخليج فكان على فرنسا أن تهتم بإقامة تحالف استراتيجي في منطقة الخليج . وحسب المشروع الذي قدمه "سلخان صبا أوربيلياني" كانت منطقة الخليج محوراً استراتيجياً مركزه مسقط . وإذا حصلت نكسة في هذا المحور عسكرياً فيمكن أن يتم الانسحاب أو الهروب منها في ظرف ثلاثة أيام . وتشكل مسقط ميناءً هاماً في بحر عمان، وكان سلطان عمان حريصاً على أن يتفاهم مع الملك لويس كي تصبح عمان محمية فرنسية . وإذا ثبت ملك فرنسا قدميه هناك فيستطيع أن يقوض مكانة الإنجليز والهولنديين في الهند وكذلك يضع حداً للطموحات في الجنوب في عمان وفي الشمال في جورجيا .

ومن هذه الناحية علقت جورجيا أهمية كبيرة على العلاقات مع البلدان العربية . وأدركت جورجيا جيداً بسبب موقعها الجغرافي ما بين قوقاز وعمان فهما تواجهان نفس المخاطر وتحاولان إقامة علاقات ودية مع الدول العربية الخليجية .

وصل "سلخان صبا أوربيليانى" إلى مارسيليا في فبراير عام ١٧١٤م . وضمن إنجاز مهمته قدم تقريراً لوزير المواصلات البحرية "لويس فليبو دي بونشاترين" (١٦٤٣ - ١٧٢٧م) الذي وجد المشروع الجورجي مهماً جداً لخدمة مصالح فرنسا فنقله إلى الملك لويس الرابع عشر لإمعان النظر فيه .

احتل "لويس فليبو دي بونشاترين" مكاناً بارزاً في التاريخ السياسي الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وتولى مناصب هامة في حكومة فرنسا كمفتش عام للماليات (١٦٨٩ - ١٦٩٩م) ووزير الدائرة البحرية ووزير الديوان الملكي ورئيس أكاديمية العلوم والمستشار (١٦٩٩ - ١٧١٤م) . وفي نفس الوقت كان ابنه "بروم فيليب دي بونشاترين" رجل دولة بارزاً (١٦٧٤ - ١٧٤٧م) وأصبح وزيراً للدولة في عام ١٦٩٣ م . وحل محل أبيه في دائرة المواصلات البحرية والديوان الملكي . ورغم أن الأب والابن احتلا نفس المناصب إلا أن لكل منهما دور خاص في التاريخ .

"لويس فليبو دي بونشاترين" كما لاحظنا علق أهمية كبيرة على مشروع "سلخان صبا أوربيليانى" الذي يشكل أساساً لتحالف فرنسا بجورجيا . وأن التحالف العسكري مع البلاد العربية كان بإمكانه أن يوسع نطاق نفوذ الملك الفرنسي في منطقة الخليج . ومن هذه الناحية كان المشروع يحمل في طياته أهمية استراتيجية كبيرة في القرن الثامن عشر . وهو الأمر الذي لا يزال يحمل نفس الأهمية حتى هذا اليوم .

وعقد "لويس فليبو دي بونشاترين" مفاوضات مبدئية مع وزير الخارجية، "ماركوييس كولبرت دي تورسي" واتفق معه مسبقاً على بنود المشروع قبل تقديمه إلى صاحب الجلالة . وكان "لويس فليبو دي بونشاترين" مقتنعاً تماماً بفائدة مشروع جورجيا وتوسعة نطاقه . وكانت النقطة الأساسية فيه هي إقامة تحالف استراتيجي بين فرنسا وجورجيا من جهة ومع الدول الخليجية من جهة أخرى . وقد أخذ "دي تورسي" بعين الاعتبار النظريات التي تضمنها المشروع ووعده بتأييده لصاحب المشروع كلما اقتضى الأمر .

وكان لـ "دي تورسي" (١٦٦٥-١٧٤٦م) نفوذ كبير في البلاط الملكي الفرنسي . واحتل منصب وزير الدولة ووزير الخارجية . كما كان عضواً بارزاً بالأكاديمية الفرنسية منذ عام ١٧١٨م . وكان أداؤه كوزير للخارجية معترفاً به ونال تقديرًا في تاريخ الدبلوماسية الفرنسية . وأعطت موافقة كل من "بونتشاترين" و "دي تورسي" على المشروع له دعماً قوياً لتحقيقه . وصرح "دي تورسي" أن دبلوماسية جورجيا صنعت مشروعاً عظيماً للغاية .

وقام باحث فرنسي في العلوم العسكرية يسمى "الجنرال لويس كوكيت" بدراسة مشروع "سلخان صبا أوربيليان" دراسة مستقلة في ٢٠ أبريل ١٩٢٥م وأعد تقريراً عنه وعرضه على جامعة السوربون . وقال فيه الجنرال مخاطباً الفرنسيين بأنه لا توجد حتى وثيقة واحدة في أرشيفات وزارة الخارجية من مستوى وثيقة مشروع جورجيا الرائع من حيث ترتيب وتصنيف محتوياته ليقدم الأغراض السياسية

والتجارية والعسكرية في المناطق المذكورة (الدول الخليجية وجورجيا) . وفي حالة تنفيذ المشروع فعلاً سوف تستفيد فرنسا لحد كبير . وكان تقييم الجنرال كوكيت مبنياً على الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج وجورجيا من منظور سلخان صبا . وكانت دبلوماسية جورجيا على علم بأهمية منطقة الخليج الاستراتيجية وأدركت أهمية البحرين عبر قرون عديدة كمركز حيوي للتجارة والمواصلات . وهو الأمر الذي جعلها موضع طموحات برتغالية وغيرها . وفي بداية القرن الثامن عشر، كانت إيران تتمتع بمكانة مستقرة في كل من البحرين وجورجيا . ولذلك واجهت كل من البحرين وجورجيا مشاكل مماثلة بالنسبة لإيران . ورأى البلدان أن استراتيجية مشتركة بينهما قد توقف طموحات إيران التوسعية . وحاول سلخان صبا حماية وطنه من سيطرة إيران عليه عن طريق دبلوماسيته . وكان الوضع قد أصبح متوتراً بسبب اعتقال إيران لملك جورجيا "فاختانج" السادس . ورغم أن إيران احترمت ملك جورجيا، غير أنها لم تثق به وقبضت عليه وأخذته رهينة . وكان سلخان صبا عم الملك فاختانج قد رباه في طفولته . مما جعله نشيطاً في الحصول على دعم من كل من فرنسا وبلدان الخليج لمشروعه .

وبصفة عامة، فإن أية دولة تحافظ على علاقات ودية مع جيرانها نظراً لأنها تواجه نفس المشاكل ولها نفس المصالح . وانطلاقاً من هذا المبدأ علينا أن ننظر إلى مبادرات جورجيا نحو البلدان العربية في القرن الثامن عشر بهدف تحسين العلاقات معها . وفي ذلك الوقت كانت البحرين تستعد للتخلص من عبء الأجانب بفضل جهود أسرة آل

خليفة الحاكمة . وفي هذه الفترة كانت سلطنة عمان قد أفلتت من نير البرتغاليين وتكافح من أجل أن تصبح دولة قوية في الخليج وتمضي قدماً في إنشاء أسطول بحري قوي لهذا الغرض .

كانت الدول الخليجية (البحرين وعمان بصفة خاصة) تملك آنئذ أسطولاً بحرياً قوياً وفقاً لتقاليدهما التاريخية . ويجدر هنا ذكر "أحمد بن ماجد" العماني الذي كان مرشداً لـ "فاسكو دي جاما" في اكتشافه لرأس الرجاء الصالح في عام ١٥٠٧م . وطار صيت أحمد بن ماجد في مجال الملاحة كملاح ماهر . وفي عام ١٦٥٠م، أي بعد ١٥٠ سنة، حرر سلطان بن سعيد اليعربي مسقط بأسطوله البحري القوي، كما نجح أيضاً في كسب نفوذ استعماري في شرق أفريقيا .

وبذل سلخان صبا جهداً كبيراً ليلفت أنظار الدول الخليجية وفرنسا نحو جورجيا . وفي مشروعه أشار إلى ميزة جورجيا كطريق تجاري يربط بين الشرق والغرب ويقرب المسافة بينهما إلى ربع المسافة المستخدمة . والطريق المقترح هو طريق الحرير المثالي الذي يوصل شحنات البضائع إلى أوروبا بسلامة عبر جورجيا والبحر الأسود .

ونالت استنتاجات سلخان صبا تأييداً من الخبير الفرنسي "جين ريتشارد" الذي درس الموضوع ميدانياً في جورجيا . وأعرب عن موافقته على فكرة استخدام إقليم جورجيا كطريق الحرير . وهذا ما نقله جين ريتشارد لفرسائي من مارسيليا بعد إكمال جولته بقوله : "إنني عثرت على ممر ضيق في غرب جورجيا يربط بين البحر الأسود وكارتلي عن

طريق غوريا - هما مملكتان صغيرتان في جورجيا - وأكثرية سكانهما مسيحيون . فيمكن لنا أن نجنب ترابيزون ونحرر مدينة أخالسيخي من نير الأتراك . ويوفر لنا هذا الطريق الاقتصاد في نفقات المواصلات في نقل الحرير من مقاطعة جيلان إلى بندر عباس ومن هناك إلى الجمارك في كل من أرزم و ترابيزون . . . الخ . وقد شاهدت كمية ضخمة من الحرير والشمع في تلك المناطق . وربح بعض المرافقين لي بقدر ٥٠٪ في القسطنطينية من تجارة الحرير، وقد جئت ببعض النماذج منه " .

كانت الدوائر التجارية في مارسيليا على اتصال بريتشارد كي تحصل منه على المعلومات التجارية عن جورجيا والبلدان الأخرى . لكن ريتشارد كان ملزماً بمراجعة البلاط الملكي أولاً بأول عن نتائج زيارته . وكتب ريتشارد لأحد الوزراء : "حاول أحد موظفي البلدية وثلاثة تجار لأقصى حد أن يحصلوا على معلومات عن ملاحظاتي حول الخليج وجورجيا وإمكانيات التجارة في المنطقة . لكن المستر دارنيوس اعترض وقال لي منزعجاً بأن تلك الملاحظات كانت لعلم النبلاء أولاً وعليهم نقلها إلى الجماعة إن اقتضى الأمر" .

وكل هذا يدل على الأهمية الكبرى التي علقبت بفكرة الطريق الحريري كأقصر طريق يربط بين الشرق والغرب في بداية القرن الثامن عشر .

وقد برزت إلى الأفق فكرة استعادة الطريق الحريري من جديد على أعتاب القرن الواحد والعشرين . ويمهد هذا المشروع الطريق لربط آسيا الوسطى بقوقاز عن طريق البحر الأسود . وهذا هو موضع اهتمام

المجتمع الدولي . ونال مشروع جورجيا عن طريق الحرير المقترح لتخفيض نفقات السفر ومدته إلى نسبة الربع ، نال إعجاب "بون شاترين" على شرط أن يحصل التحالف السياسي والعسكري بين فرنسا وجورجيا من جهة والبلدان الخليجية من جهة أخرى . وتكون نتيجة هذا التحالف ، عرقلة الإنجليز والهولنديين في مد نفوذهما في الهند وكبح الطموحات من الجنوب والشمال .

ومن المبررات الأخرى المؤيدة لهذه الفكرة أن أم حاكم مسقط كان أصلها يعود إلى جورجيا . ومنذ حوالي قرن من الزمان ، ظلت سلالة "اندلادزي" الحاكمة تمارس النفوذ في الجنوب .

وبعد سنة من الرسالة مات لويس الرابع عشر ودخل المشروع إلى طي النسيان .

ونفذ القيصر الروسي بطرس الأعظم المشروع ووضع جورجيا بالتدريج تحت حماية روسيا .

البروفيسور غورام شيكوفاني